المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم

أحوال السياق القرآني في استعمال قاعدة: (خطاب الاسم وخطاب الفعل)

إعداد
د/ خالد بن موسى بن غرم الله الحسني الزهراني
أستاذ التفسير المشارك بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الباحة

إصدار يناير ٢٠١٩م
شعبة النشر والخدمات المعلوماتية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي انفرد بالربوبية، واختص بالألوهية، وتعالى وتقدس بالأسماء والصفات، فله سبحانه

الكمال المطلق من كل وجه، الذي من أجلِّ صفات كماله صفة الكلام، فكلامه أفضل الكلام وأعلاه، وبيانه أكمل البيان وأشفاه، يتكلم بما شاء كيف شاء إذا شاء سبحانه، لا يحيط بكنه كلامه إلا هو، ولا يبلغ مدى بيانه أحد سواه، تكلم بالقرآن على الحقيقة فبلغ الغاية في البلاغة والنهاية في الفصاحة، ولا غرابة فهو كلام رب العالمين، وقرآن الحق المبين، تحدى به أرباب البيان من البشر، ودهاقنة البلاغة من الأمم، فعجزوا عن مجاراته، وأعلنوا بالإفلاس في محاكاته، وسلموا بأنه فوق طوق البلغاء، وأذعنوا بأنه عالٍ على كلِّ الفصحاء، مع شدة الحرص على معارضته، وبذل الوسع في تكذيبه ومدافعته.

والصلاة والسلام على أفصح البشر منطقًا، وأعذبهم كلامًا ومورِدًا، الذي آتاه ربه جوامع الكلم[1]، واختصر له الكلام اختصارًا، محمد الأمي، صلى الله عليه وعلى أصحابه الغر الميامين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد

فإن من جملة القواعد التي بنيت عليها ألفاظ القرآن الكريم؛ قاعدة (الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل)، وهي من الطرائق التي جرى عليها كلام العرب في مخاطباتهم، فوافقهم القرآن بالنزول على مباني ألفاظهم، وطرائق كلامهم، كما قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الزخرف:٣]، وهي دالة على فن من فنون البلاغة، ولون من ألوان البراعة، استعملها القرآن على أدق الطرائق وأبلغها، وأكمل الاستعمالات وأشفاها؛ ولذا اعتنى بها علماء التفسير بيانًا وتوضيحًا، وتأصيلًا وتقعيدًا، فجاء كلامهم عنها إمَّا منتثر في سياق تفاسيرهم للقرآن الكريم، أو بتقعيد وتأصيل في بعض كتب من صنف في علوم القرآن كالزركشي في البرهان أو السيوطي في الإتقان، ولكنهم لم يستوعبوا الكلام عنها، بل كان عملهم جليلًا بفتح الباب لمن بعدهم، وتمهيد السبيل لمن اقتفى أثرهم، فأحببت أن أضيف فيها ما منَّ الله تعالى به حولها، لعله يفيد متخصصًا أو يهدي مسترشدًا، ليكون لبنة جديدة في هذا البناء الشامخ الذي جهد فيه أسلافنا رحمهم الله، مع اعترافي بقلة الزاد وقصر الباع، رغبة في التشبه بهم، ولو في ظاهر الحال، فإن التشبه بالكرام فضيلة، وطمعًا في أن يحشرني الله تعالى في زمرتهم، ويضمني إلى فريقهم، وخدمة لتخصصي في علم التفسير وعلوم القرآن.

ثانيًا: أهمية الموضوع:

تظهر أهمية البحث في موضوع الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل من خلال النقاط التالية:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب: الصلاة، باب: جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، برقم : [١١٠٣].

١- ارتباط البحث في هذه المسألة بالقرآن العظيم، فهو أس العلوم ورأسها، وأشرف الكتب وأولاها، وتدبره وفهمه، واستخراج مكنوناته وكنوزه من الأمور المرغب فيها شرعًا.

٢- أن هذا الموضوع يعتبر مجالًا من المجالات التي يعتني بها المتخصصون في التفسير وعلوم القرآن، وهو تخصصي الذي منَّ الله تعالى به عليَّ، فاهتمامي به يعتبر خدمة لتخصصي.

٣- أن قاعدة (الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل) من جملة القواعد التفسيرية التي لابد لمن تصدى لتفسير القرآن الكريم من الاطلاع عليها ومعرفتها؛ ليتسنى له دقة الفهم لكلام الله تعالى، والوقوف على شيء من درره وفرائده.

٤- أن العناية بهذه القاعدة التفسيرية يُمَكِّنُ من الوقوف على أوجه من البلاغة البيانية للقرآن الكريم.

ثالثًا: منهج البحث وخطته:

سأتبع في بحثي هذا منهج الاستقراء، بسبر الآيات القرآنية، والتأمل فيها وتدبرها، والاستفادة من كلام العلماء، للوصول إلى ملامح استعمال القرآن الكريم لقاعدة (الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل)، ثم تصنيفها وترتيبها، وذكر الأمثلة على كل ذلك من القرآن الكريم، والاستشهاد بأقوال أئمة التفسير فيها، وذلك وفق الخطة التالية:

- **المقدمة: وفيها:**

أولًا: التمهيد.

ثانيًا: أهمية الموضوع.

ثالثًا: منهج البحث وخطته.

- **المبحث الأول: ويشتمل على ما يلي:**

أولًا: تنوع السياقات القرآنية.

ثانيًا: قاعدة الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل.

- **المبحث الثاني: أحوال الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل في القرآن الكريم، وفيه:**

أولًا: مسميات وردت في سياق الخطاب بالاسم.

ثانيًا: مسميات وردت في سياق الخطاب بالفعل.

ثالثًا: مسميات وردت بخطاب الاسم تارة، وبخطاب الفعل أخرى.

رابعًا: قواعد في الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل في القرآن:

١- ما كان من المسميات من شأنه ألا يفعل إلا مجازاة، لا للاتصاف به، لم يأت إلا في سياق الخطاب بالفعل وتراكيبه.

٢- ما كان صفة لازمة للمخلوق فإنه يجيء بصيغة الاسم، دلالة على ملازمة الصفة للموصوف.

٣- النفي إذا دخل على الفعل المضارع أفاد الدوام والاستمرار.

٤- الخطاب بصيغة الفعل الماضي قد يفيد الحاصل المفروغ منه، وقد يفيد الحاصل والمتجدد معًا.

٥- أن الفعل المضمر المقدر كالمظهر في الدلالة على التجدد والحدوث.

- **الخاتمة.**
- **المصادر والمراجع.**
-

هذا والله أسأل أن يوفقنا للصواب، وأن يلزمنا الرشاد والسداد، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به من سطره، أو قرأه وأفاد منه، أو راجعه وتعقبه وصححه، فهو المسئول وحده، والمؤمل لا غيره، فله الحمد كله، والشكر جميعه، وهو وحده الذي بنعمته تتم الصالحات.

د/ خالد بن موسى الحسني الزهراني

مكة المكرمة، حرسها الله

Dr.k_alhassani@hotmail.com

- **المبحث الأول:**

أولًا: تنوع السياقات القرآنية:

اقتضت سنة الله تعالى أن تؤيد الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات تدل على صدقهم وتقوي جانبهم، وتكون دليلًا على براءة ساحتهم من تهمة الكذب والتقول على الله تعالى التي سيلصقها بهم أعداؤهم. وكان من تمام الحكمة الإلهية في هذا الجانب أن تكون معجزة كل نبي غالبًا من جنس ما تقدم فيه أهل عصره وبرع فيه قومه، ليكون ذلك أجلى في قيام الحجة عليهم، وأبلغ في ظهور عجزهم أمام تلك المعجزات التي لا يمكن أن تكون إلا من الله تعالى، وعلى يد من أُيد من قبله؛ وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ولما كانت أمة العرب التي بعث فيها محمد صلى الله عليه وسلم برعت في الخطاب، وتفننت في أساليب الكلام، وبلغت الذروة في الفصاحة والبلاغة كانت أكبر معجزاته صلى الله عليه وسلم من جنس ما برعوا فيه، فأنزل الله تعالى القرآن الكريم، مركب من حروف كلامهم، وبطرائق خطابهم، وأفانين حديثهم، فتحداهم أن يعارضوه أو يحاكوه كله، أو قدر عشر سوره، أو حتى النزر اليسير منه، وفيهم دهاقنة البلاغة، وأرباب الفصاحة، فلم يستطيعوا لذلك سبيلًا، وشهدوا بأنه ليس من كلام البشر، فقامت عليهم بذلك الحجة.

فعن ابن عبَّاس رضي اللَّهُ عنهما، أَنَّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقرأ عليه القرآن، فكأنَّه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمُّ، إنَّ قومك يرون أن يجمعوا لك مالًا. قال: لم؟ قال: ليعطوكه؛ فإنَّك أتيت محمَّدًا لتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريشٌ أنِّي من أكثرها مالًا. قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنَّك منكر له أو أنَّك كاره له. قال: وماذا أقول! فواللَّه ما فيكم رجل أعلم بالْأشعار منِّي، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منِّي، ولا بأشعار الجنِّ، واللَّه ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إنَّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنَّه ليعلو وما يعلى، وإنَّهُ ليحطم ما تحته[1].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: إنَّ أول يوم عرفت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنِّي أمشي مع أبي جهلٍ بمكَّة، فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا أبا الحكم، هلمَّ إلى الله وإلى رسوله وإلى كتابه، أدعوك إلى الله، فقال: يا محمَّد، ما أنت بِمُنْتهٍ عن سبِّ آلهتنا، هل

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم [٣٨٧٢]، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم [١٣٤].

تريد إلاَّ أن نشهد أن قد بلَّغت، فنحن نشهد أن قد بلغت. قال: فانصرف عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل عليَّ، فقال: والله إنِّي لأعلم أنَّ ما يقول حقٌّ ولكن بني قُصَيٍّ، قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، ثمَّ قالوا: فينا القرى، فقلنا: نعم، ثمَّ قالوا: فينا النَّدوة، فقلنا: نعم، ثمَّ قالوا: فينا السِّقاية، فقلنا نعم، ثمَّ أطعموا وأطعمنا، حتَّى إذا تحاكَّت الرُّكب، قالوا : منَّا نبيٌّ! والله لا أفعل[1].

فأقروا للقرآن بصدقه، وأذعنوا لبلاغته وفصاحته، مع شدة حرصهم على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، ورد أمره، والطعن في معجزته.

واللغة العربية التي نزل بهما القرآن الكريم أوسع اللغات على الإطلاق، وفيها من الميزات ما يجعلها بحق أفضل اللغات وأبدعها، ولا يملك المتأمل في أساليبها وأفانينها إلا أن يذعن بذلك، وهو الذي أشار إليه القرآن الكريم في أول سورة الرحمن التي افتتحت بالحديث عن الله تعالى وما اختص به سبحانه من بديع الصفات وعظيم الأفعال، فقال جل وعز: {الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}، قال ابن فارس: (قدّم جلّ ثناؤه ذكر البيان عَلَى جميع ما توحَّد بخلقه وتفرَّد بإنشائه، من شمس وقمر، ونجم وشجر، وغير ذلك من الخلائق المحْكمة والنشايا المتقنة. فلمّا خصَّ جلَّ ثناؤه اللسان العربيَّ بالبيان عُلم أن سائر اللغات قاصرةٌ عنه وواقعة دونه)[2].

ولاتساعها ذهب العلماء إلى عدم القدرة على الإحاطة بها إلا لنبي[3]، وهو من أهم خصائصها التي تميزت بها على غيرها من لغات العالم، مع الخصائص الكثيرة التي لها، والتي من أميزها ثراء معجمها اللفظي، وذلك متمثل في كثرة المرادفات اللفظية، والمشتركات اللفظية، وتعدد المعاني بتعدد الألفاظ المركبة من حروف متحدة بتقليب حروفها تقديمًا وتوسيطًا وتأخيرًا[4]، وغيرها من أوجه ثراء اللغة العربية.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم [٣٦٩٧٩]، وإسناده حسن.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها (١٩).

(٣) المصدر السابق (٢٤).

(٤) أن اللفظ الواحد بتقليب حروفه تقديمًا وتوسيطًا وتأخيرًا يعطي أحيانًا معنى مستقلًا في كل حالة، كما نبه عليه الخليل بن أحمد رحمه الله في كتابه العين، وبنى معجمه عليه، فمما ذكره من الثنائي (عَقَّ، قَعَّ) (٦٢/١)، ومن الثلاثي (هقع، عهق) (٩٦/١)، ومن الرباعي (هجنع، عنجه، عجهن) (٢٧٦/٢).

والمتأمل في القرآن الكريم يلحظ بأنه جاء في سياقات متعددة، كلها جار على سنن العرب، ومن ذلك:

- **مجيئه في سياق الخطاب ثم التفاته إلى سياق الغيبة:**

الالتفات فن من أفانين العرب في كلامها، وحقيقته: الانتقال من أسلوب في الكلام إلى آخر، وله فوائد عدة، منها: تجديد نشاط السامع، والمحافظة على حضور ذهنه، مع ما ينفرد به كل موضع من فائدة مستقلة[1].

والأصل أن يكون الخطاب مع حاضر، لكن قد يخاطب الحاضر بصيغة الغائب لحكم وفوائد، وقد تكرر هذا الأسلوب في القرآن في مواطن متعددة، فمن ذلك:

- قوله تعالى في خطاب بني إسرائيل حين حرم عليهم خيانة إخوانهم في الدين بإسلامهم لأعدائهم وترك نصرتهم من أجل مصالح دنيوية: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[البقرة]، فجاءت الآية من أولها في سياق خطاب الحضور لهم (ميثاقكم، دماءكم، أنفسكم، دياركم، أقررتم، تشهدون، أنتم، تقتلون، أنفسكم، تخرجون، منكم، تظاهرون، يأتكم، تفادوهم، عليكم، أفتؤمنون، وتكفرون)، ثم لما انتقل إلى بيان جزائهم في الآخرة التفت عن الأسلوب الأول إلى سياق الغيبة بقوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ}[البقرة:٨٥]، فقال: (يردون) وكان الأصل أن يقال (تردون)؛ وذلك لنكتة احتقارهم وبيان هوانهم على الله؛ إذ لا يستحقون الخطاب معهم لمَّا كانت هذه نهايتهم.

- **مجيئه في سياق الغيبة ثم التفاته إلى الخطاب:**

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/٣١٤)، والاتقان في علوم القرآن (٣/٢٨٩).

ومن أمثلة مجيء السياق للغيبة ثم التفاته إلى الخطاب من يلي:

- قول الله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}[آل عمران]، فبعد أن بين الله تعالى حال غالب أهل الكتاب، أنهم على الكفر بآيات الله، وقتل أنبيائه، وتعدي حدوده؛ مما أوجب لهم غضب الله تعالى عليهم، بين أنهم ليسوا جميعًا على طريقة واحدة، وبالتالي ليسوا على منزلة واحدة عند الله تعالى، بل فيهم من وحد الله تعالى، وآمن برسوله صلى الله عليه وسلم، وأدى شرائع الله تعالى عليه، وتقرب إلى الله تعالى بأنواع القربات، وسعى إلى الخيرات، كعبدالله بن سلام رضي الله عنه وغيره ممن آمن، وجاء الحديث عنهم بسياق الغيبة {مِن أَهلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ} (يسجدون، يؤمنون، يأمرون، ينهون، يسارعون)، ثم التفت السياق إلى الخطاب {وَمَا تَفْعَلُوا} {فَلَنْ تُكْفَرُوهُ} على قراءة الجمهور، عطفًا على ما سبق من الخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ}[١١٠]؛ وذلك لنكتة التكريم لهم، والتحضيض على الاستمساك بالحق الذي عرفوه، وضمّ من آمن من أهل الكتاب لزمرة أمة الاستجابة المحمدية[(١)]، بخلاف قراءة حفص وحمزة والكسائي وخلف بالياء على الغيبة (يَفْعَلوا) (يُكْفَرُوه)[(٢)].

- **مجيئه في سياق الغيبة ثم التفاته إلى التكلم:**

ومن أمثلة مجيء السياق للغيبة ثم التفاته إلى التكلم ما يلي:

- قول الله تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ}[آل عمران]، فأخبر الله تعالى عن بشارته لمريم بعيسى عليهما السلام، مع

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١٨/٧)، والمحرر الوجيز، لابن عطية (٤٩٢/١)، والبحر المحيط، لأبي حيان (٣٢٤/٣).

(٢) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، لشهاب الدين أحمد البنا (٢٢٧).

رسوله أمين الوحي جبريل عليه السلام، واستفهامها استفهام المتعجب من حملها بغير زوج، فأجابها جبريل بالتذكير بعظمة الله تعالى؛ وأن الله لا يعجزه شيء أراده؛ فقال: {كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، فكان إخباره عليه السلام عن الله بسياق الغيبة، ثم التفت السياق بحديث الله تعالى عن نفسه العلية بنون العظمة الدالة على التكلم في قوله: {وَنُعَلِّمُهُ}، على قراءة الجمهور بالنون، بخلاف قراءة نافع وعاصم وأبو جعفر ويعقوب {وَيُعَلِمُهُ}[1]؛ وذلك لنكتة اصطفائه لنبيه عيسى عليه السلام، وتكريمه له، ومنَّته عليه[2].

- **مجيئه في سياق التكلم ثم التفاته إلى الغيبة:**

ومن أمثلة مجيء السياق للتكلم ثم التفاته للغيبة ما يلي:

- قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[آل عمران]، فأخبر الله تعالى عن سنته وعادته في الأمم الكافرة، التي كذبت أنبياءها، وخالفت أمر ربها، أنها الاستئصال، متهددًا تعالى المخاطبين بالقرآن من كفار قريش والعرب وأهل الكتاب، ومن يأتي بعدهم، بأن نهايتهم نهاية قوم فرعون ومن قبلهم، من قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، وأن قوتهم لم تغن عنهم شيئًا لمَّا حلت عليهم نقمت ربهم تعالى، ثم ذكر الله تعالى السبب الجامع بينهم، المستلزم تشابه النهاية في سياق التكلم منه تعالى بقوله: {كَذَبُوا بَآيَاتِنَا}؛ تعظيمًا للأمر الذي وقعوا فيه، وتهويلًا لجرأتهم على تكذيب آيات الله، التي كان الأولى أن يذعنوا لها، ويؤمنوا بها، ثمَّ التفت السياق إلى الغيبة بقوله تعالى: {فَأَخَذَهُم الله}{وَالله شَدِيْدُ العِقَاب}، وذلك لنكتة التهويل والزيادة في التخويف والترهيب؛ إذ ذكر الاسم الظاهر (الله) ولم يكتف بالضمير في كليهما[3].

- **مجيئه في سياق المدح:**

---

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (٢٢٣).

(٢) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (١٧/٢)، والبحر المحيط (١٧١/٣).

(٣) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٧/٢)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (١١/٢).

المدح: حسن الثناء على المتصف بالصفات الحميدة، ويمدح الحي والميت والجماد، كمدح الطعام، ويقع المدح قبل الإحسان وبعده، ويمدح على الصفات المتعدية، كالكرم، واللازمة، كالصدق[1].

ومما ورد في هذا السياق جملة من الآيات التي أثنت على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن ذلك:

- قول الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١)}...{فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}[مريم]، فهذه جملة من الآيات التي أثنت على جملة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ابتدأت بأبي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إبراهيم، فامتدحه تعالى وأثنى عليه بكثرة الصدق والقيام عليه، وتوفية ما أُمر به عليه السلام من توحيد الله تعالى والتعبد له ظاهرًا وباطنًا، وهجر الشرك وأهله، وإعطاء الله له النبوة، ثمَّ امتدحت إسحاق ويعقوب عليهما السلام بإعطاء النبوة، وبالذكر الحسن الذي جعله الله تعالى لهم جميعًا إلى يوم القيامة، ثم امتدحت الآيات نبي الله موسى عليه السلام بالإخلاص لله تعالى، وبالنبوة والرسالة، وبما اختص به من تكليم الله تعالى له، وما امتن به عليه من إجابة سؤاله ببعث أخاه هارون عليه السلام معه نبيًا؛ تقوية لجانبه، ونصرة له، ثم امتدحت إسماعيل عليه السلام بالصدق فيما التزم به، وبالنبوة، وبالوفاء في القيام على من ولاه الله تعالى أمره من أمته، بالأمر بما أمر الله تعالى به، والنهي عما نهى عنه، وبرضى الله تعالى عنه بما اتصف به من الصفات الجليلة والخلال الحميدة، وفصلت ذكره عن إسحاق مع كونه

---

(١) انظر: لسان العرب (٥٩٢/٢)، وتفسير ابن كثير (١٢٩/١).

ابن إبراهيم عليه السلام الأكبر بذكر إسحاق ابن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، وموسى من ذرية إسحاق، زيادة في الثناء عليه بإفراده بالذكر، ثم اثنت على نبي الله إدريس عليه السلام بكثرة الصدق والقيام عليه، وتوفية ما أمره الله تعالى به ظاهرًا وباطنًا، وبالنبوة، وبعلو المرتبة عند الله تعالى، وعلو المنزلة في المكان في السماء الرابعة[1].

- **مجيئه في سياق الذم:**

الذم: نقيض المدح، وهو اللوم على الصفات القبيحة[2].

ومن الآيات القرآنية التي وردت في سياق الذم:

- قول الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)}[البقرة]، فأخبر الله تعالى عن طائفة من عباده، فذمهم الله تعالى بأقبح الصفات وأخزاها، بإظهار الخير وحسن القول، وإبطان أشد الشر والخصومة لله ولرسوله ولأهل الإيمان، وهو النفاق، والحرص على نشر الفساد في الأرض، بنشر الكفر، والذنوب والمعاصي؛ ولذا عبر في الآية عن شدة حرصهم على ذلك بقوله: (سعى)، وأخبر تعالى عمَّا يترتب على نشر الكفر والمعاصي من إهلاك الحرث والنسل، ثم ذمهم تعالى بالإعراض عن نصح الناصحين، واغترارهم بما هم عليه، واستمرارهم في غيهم، ثم تهديد الله تعالى لهم، وتوعدهم بنار جهنم والعياذ بالله. والآيات وإن روي أنها نزلت في رجل مخصوص، هو الأخنس بن شريق الثقفي إلا أن ألفاظها أتت بما يدل على أنها تشمل كل من انطبقت عليه هذه الصفات الذميمة، وإن تناءت بهم الديار، أو تباعدت بهم الأزمان[3].

---

(١) انظر: تفسير أبو المظفر السمعاني (٢٩٤/٣)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢٦٦/٥).

(٢) انظر: لسان العرب (٢٢٠/١٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٢٩/٤)، وتفسير أبو المظفر السمعاني (٢٠٧/١).

- **مجيئه في سياق الحث والتحضيض:**

الآيات في هذا السياق كثيرة، ومن أوضحها الآيات التي وردت في صفات أهل الإيمان، ومن ذلك:

- قول الله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[البقرة]، فتقديم الله تعالى لصفات أهل الإيمان بوصف التقوى، مع ما تقرر في ذهن المكلف من تزكية النصوص الشرعية لمن اتصف بها، ثم ختم صفاتهم بجملة من المرغبات التي تبين فضلهم، وتكشف حسن عاقبتهم، كل ذلك يحث ويحض على التزام منهجهم، والحرص على التخلق بأخلاقهم، بداية باستعمال اسم الإشارة للبعيد (أُولَئِكَ) إشعارًا بعلو درجتهم، وبعد منزلتهم في الفضل، ثم حرف الاستعلاء في قوله: (عَلَى هُدًى) تشبيهًا لهم بمن يعتلي الشيء، ويستولي عليه متمكنًا منه، إيذانًا بتمكنهم من الهدى، وكمال رسوخهم منه، ثم التنكير والإبهام في (هُدًى)؛ لكمال تفخيمه، أي: هدى لا يبلغ كنهه ولا يقدر قدره، ثم إضافة الهدى إلى الله تعالى بقوله (هُدًى مِن رَبِّهم)؛ تفخيمًا له، وإشارة إلى كمال الرشد فيه، وكمال العناية لهم من الله تعالى، وهي هداية شاملة لكل أنواع الهداية وأتمها، ثم إعادة اسم الإشارة للبعيد؛ للإشارة إلى أن كل من النهايتين على ما اتصفوا كافٍ في تميزهم على غيرهم، ففيه زيادة في العناية بهم، وإظهار فضلهم، ثم ضمير الفصل في (هُم)؛ لاختصاصهم بالفلاح، زيادة في تكريمهم، ثم الختم بـ (المفلحون)؛ للدلالة على أنهم الأخص بالفوز بخيري الدنيا والآخرة، وهذا الختم فيه التحفيز والتحضيض على التخلق بهذه الصفات[1].

- **مجيئه في سياق التنفير والتحذير:**

الآيات القرآنية الواردة في هذا السياق كثيرة، ومن ذلك:

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣٢/١).

- قول الله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٢٧٥]، فجاءت هذه الآية في أبلغ أساليب التنفير من الوقوع في الربا، وهو بيان حال أكلت الربا التي سيتلبسون بها في عرصات القيامة، حين يكون الواحد منهم في مثل حال المصروع في الدنيا، الذي يتخبطه الشيطان بمسه، مختل العقل لا يلوي على شيء، في حالة مخزية يعرفهم بها أهل الموقف؛ وقد أشارت الآية إلى فضاعتها باسم الإشارة للبعيد (ذَلِكَ)، ثم ختمت الآية بما يزيد من التحذير من ذلك، باستعمال اسم الإشارة للبعيد (أُولَئِكَ)؛ إشعارًا ببعد منزلتهم في الشر والفساد، ثم ببيان أنهم أصحاب النار، أي: الملازمون لها، ملازمة الخليل والصاحب لخليله وصاحبه، ثم بقوله: (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)، أي: الماكثون فيها أكثر من غيرهم، والعياذ بالله[1].

- **مجيئه في سياق الوعد:**

الآيات القرآنية التي جاءت في هذا السياق كثيرة جدًا، كوصف الجنة ونعيمها، ومن ذلك:

- قول الله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٢٥].

- **مجيئه في سياق الوعيد والتهديد:**

من الآيات الكثيرة التي جاءت في سياق الوعيد وصف النار وعذابها، ومن ذلك:

- قول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ}[التوبة].

فجاء القرآن الكريم في سياقات متعددة، كما هي طريقة العرب في كلامها.

ومن جملة السياقات التي كانت العرب تستعملها في كلامها، ووافقها القرآن في استعمالها:

---

(١) انظر: تفسير أبو المظفر السمعاني (٢٧٩/١)، والتحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (٩٠/٣).

ثانيًا: سياق الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل:

من القواعد اللفظية القرآنية التي نص عليها العلماء رحمهم الله تعالى (الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل)، قال الزركشي: (الفعل يدل على التجدد والحدوث، والاسم على الاستقرار والثبوت)[١]، وقال السيوطي: (الاسم يدل على الثبوت والاستمرار، والفعل يدل على التَّجدد والحدوث)[٢]، والمراد أن طريقة العرب في كلامهم تلوين الكلام وتنويعه، والقرآن نزل بلغتهم؛ ولذا فإنهم يستعملون الجملة الفعلية تارة والاسمية أخرى خلواً من التأكيد من غير تكلف، اعتماداً على أن المقصود حاصل للسامع بدون التأكيد، فكانت الجملة بمجرد استعمالها أصلاً تدل على ذلك المعنى، فتدل على ثبوت الشيء واستقراره واستمراره بمجرد مجيئها بصيغة الاسم، أو تجدد المتحدث عنه وحدوثه بعدُ بمجرد مجيئها بصيغة الفعل.

وهو وجه من أوجه اللغة العربية وتميزها، ولا يحسن استعمال أحد الوجهين موضع الآخر؛ لأنه لا يؤدي نفس المعنى المراد باستعمال أصل اللفظ، كما في قوله تعالى: {وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ}[الكهف:١٨]؛ فـ (باسط) جاءت بصيغة اسم الفاعل؛ للإشعار بثبوت هذه الصفة له، وهو المناسب لحال ما كان عليه أصحاب الكهف وكلبهم معهم من الاستمرار في الرقاد تسع وثلاثمائة سنة، ولو جيء بالفعل (يبسط) لم يؤد الغرض؛ إذ مفاده تجدد البسط له مرة بعد مرة وشيئاً بعد شيء وليس بمراد[٣].

وقوله تعالى: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[فاطر:٣]، فـ (يرزقكم) جاءت بصيغة الفعل المضارع للدلالة على حقيقة رزق الله لهم، فرزقه تعالى لهم ولغيرهم متجدد شيئاً بعد شيء، ولو جاءت بصيغة اسم الفاعل (رازقكم) لفات ما أفاده الفعل هنا[٤].

ومثله قوله تعالى: {وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ}[يوسف: ١٦]، فجاء بصيغة الفعل المضارع (يبكون) مع أن العامل الذي يفيده ماض، لبيان حالهم وصورة ما هم عليه وقت المجيء، وأنهم آخذون في البكاء يجددونه شيئاً بعد شيء[٥]، وهو أبلغ في تصوير حال من تصنع البكاء وكذب

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٤/٦٦).

(٢) الاتقان في علوم القرآن (٢/٣٧٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) الاتقان في علوم القرآن (٢/٣٧٦).

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٤/٤٤).

فيه، بخلاف ما لو جاء بصيغة اسم الفاعل أو المفعول الدال على الاستمرار والثبوت، كمن صدق في بكائه فإنه يستمر عليه لا كمن تصنعه فإنه محتاج إلى تكلف تجديده.

ومثله التعبير بالفعل المضارع في وصف المؤمنين بالإنفاق كما في قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً}[البقرة:٢٧٤]، أو بالإنفاق وإقام الصلاة كما في قوله تعالى: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[البقرة:٣]؛ لأن حقيقة النفقة أمر فعلي من المكلف شأنه الانقطاع والتجدد، وكذلك الصلاة، والمؤمن مأمور بهما في كل وقت، محدث لهما مرة بعد مرة.

ومثله قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ}[الشعراء:٧٨]، فـ (يهدين) جاءت بصيغة المضارع للدلالة على حال المكلف وأنه محتاج للهداية في كل وقت، متجددة له في كل فعل.

ومثله قوله تعالى: {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[الشعراء]، فجاء بصيغة المضارع (يطعمني، يسقين، يشفين)؛ للدلالة على تجدد الإطعام والإسقاء والشفاء؛ إذ هي أحوال متجددة للعبد، بخلاف مالو استعمل اسم الفاعل (طاعمني، ساقين، شافين) لدل على ثبوتها واستمرارها، وهو مخالف للواقع فيها.

وقوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ}[الأعراف:١٩٣]، فجاءت (صامتون) بصيغة اسم الفاعل لبيان حقيقة حال أصنامهم التي كانوا يدعونها من دون الله، وأنها ملازمة للصمت مستمرة عليه؛ لأن المقصد بيان عجزها، وأنها جماد لا يضر ولا ينفع، بخلاف ما لو عبر بصيغة الفعل المضارع (يصمتون) الدالة على التجدد والحدوث، إذ يكون مفادها أنهم يتكلمون مرة ويصمتون أخرى، ولأن صامتون فيها أيضاً مراعاة للفواصل فهي أبلغ مبنى ومعنى[1].

وقوله تعالى راداً على المنافقين دعواهم الإيمان: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}[البقرة:٨]، فهم أخبروا عن أنفسهم بالفعل الماضي (آمنَّا) ليخادعوا المؤمنين بزعم إحداث الإيمان، والإعراض عن الكفر. فجاء الرد من الله عليهم بالاسم في (وما هم بمؤمنين)، بياناً منه أن هذا القول إنما صدر منهم ادعاء، إذ يقتضي نفي أن يكونوا طائفة من طوائف المؤمنين، وينطوي تحته على سبيل القطع نفي ما أثبتوا لأنفسهم من الدعوى الكاذبة، فأجيبوا بالباء مبالغة في تكذيبهم، وجاء بالاسم دلالة على ثبوتهم على الكفر واستمرارهم فيه. ولو قيل (وما آمنوا) لم يفد هذا المعنى إنما يفيد نفيه عنهم في الماضي، ولم يفد ذمهم إن كانوا آمنوا

---

(٢) انظر: المصدر السابق (٤/٤٥).

ثم ارتدوا، لكن استعمال الاسم هنا أفاد نفيه في الحال، وذمهم بكل حال.

وقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[آل عمران:٢٦]، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يدعوه بصفاته، فلما كان الحديث عن صفته الذاتية تعالى جاءت بصيغة اسم الفاعل (مالك) المفيدة للثبوت والاستقرار والاستمرار، و(الملك) أي جنس الملك؛ فملك الله تعالى لكل شيء ثابت مستمر، لا يحول ولا يزول، ولم يقل (يملك) بصيغة المضارع لأنها لا تناسب عظمته تعالى، ولا توافق حقيقة الحال؛ لأنها تفيد التجدد والحدوث، وهو مخالف لحقيقة ملكه تعالى، ثم لما قرر ما يتعلق بإثبات الملك له تعالى، وانتقل للحديث عن صفته الفعلية تعالى بمنحه الملك لمن يشاء جيء بصيغة المضارع (تؤتي الملك) المفيدة للتجدد والحدوث؛ لأن ملك العبد مهما كان متجدد الحدوث، سبقه عدم ومنتهي إلى زوال؛ ولذا قال بعده (وتنزع الملك)، ومثله (وتعز) (وتذل)، ولا يناسب استعمال إحدى الصيغتين مكان الأخرى؛ لأنه مخالف لحقيقة الحال[1].

وقوله تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[الصف]، فأخبر الله تعالى عن فعل الكافرين بالسعي الحثيث في كل ما من شأنه التأثير على الإسلام، وصرف الناس عنه، بكل وسيلة لهم ممكنة؛ ولذا جيء باللام في (ليطفئوا) تأكيدًا لحرصهم، كما يقال: جئت لإكرامك. واستعمل الفعل المضارع المفيد لتجدد ذلك منهم في كل فرصة، ثم جاء الأسلوب القرآني بأسلوب التهكم بهم، وأن فعلهم لا يعدوا أن يكون بمثابة الكلام التافه الذي يخرج من الأفواه من غير أن يكون له سند من واقع أو حقيقة من حال، كما قال تعالى في قول أهل الإفك في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}[النور:١٥]، وكما قال تعالى في شأن تحريم الظهار بجعل الزوجة الحلال بمنزلة الأم المحرمة، وتحريم التبني؛ لأنه مخالف لحقيقة الحال وواقعه: {وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ}[الأحزاب:٤]، فجعل صنيع الكافرين بالمكيدة بدين الإسلام كصنيع من ينفخ في نور

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢١٣/٣).

الشمس ليطفئه؛ ولذا جاء الرد عليهم من الله تعالى أبلغ من فعلهم، فعقب ذكر صنيعهم بوعده تعالى بإبطال كيدهم، وجاء الوعد منه تعالى بصيغة الاسم التي تزيد على صيغة المضارع المذكورة لهم، ليكون أبلغ في الرد عليهم، كأنه تعالى يتهددهم ويطمئن أولياءه بأنهم مهما أحدثوا من ذلك قولًا أو فعلًا فإنه لا يبلغ نجاحًا؛ لأن نور الله ثابت مستقر، فرد بصيغة الاسم (والله مُتِمُّ نوره) مبتدأ وخبر، ثم ذكر في الآية التي تليها وعده تعالى بإظهار دينه الذي ارتضاه على كل الأديان، وجاء ذلك بصيغة المضارع (لِيُظْهِرَهُ) المفيدة للتجدد والحدوث ليناسب المضارع المفيد لتجدد فعل الكافرين في الآية السابقة، تأكيدًا لإبطال مكائدهم متى ما أحدثوها؛ لأنه تعالى ارتضى دين الإسلام، وقضى بإظهاره على كل ما خالفه، وإظهار أهله على من شاقهم[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٩١/٢٨)، وتفسير الكشاف، للزمخشري (٥٢٥/٤).

• المبحث الثاني:
أحوال سياق الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل في القرآن الكريم:

بتأمل الآيات القرآنية التي اشتملت على سياق الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل يمكن أن نخلص إلى أحوال كل منهما، فسأعتني بذكر نماذج لكل حالة؛ لتعذر استيفاء ذلك في مثل هذا البحث، ويكفيني أني أرشدت إلى ذلك، مع التركيز على ما تمس الحاجة لمعرفته كالسياقات المشتملة على بيان صفات الباري سبحانه؛ لما لها من أهمية في توضيح العقيدة الصحيحة تجاهها.

وبيان أحوالها ما يلي:

أولًا: مسميات وردت في سياق الخطاب بالاسم:

المسميات التي وردت في هذا الاستعمال في القرآن كثيرة، ومن ذلك:

- من أوضح أمثلتها في القرآن ما ذكر الله تعالى في ختام عاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النار، من خلود كل في دار مستقره، فجاءت في غالب المواطن بصيغة اسم الفاعل (خالدون) (خالدًا)؛ للدلالة على دوام أهل الجنة واستمرارهم في الجنة، ودوام أهل النار المخلدين فيها واستمرارهم في النار، وتناسبت بذلك دلالة اللفظ ومعناه مع صيغة اللفظ ومبناه، ومن ذلك قول الله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٢٥]، ولم يقل (يخلدون) بصيغة الفعل؛ لأنه لا يناسب حالهم، المستلزم لعدم موتهم أو خروجهم منها[1]، ومثله قول الله تعالى في حق أهل الجنة: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٨٢]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى في حق أهل الكفر المخلدين في النار: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٣٩]، فجاءت بصيغة الاسم (خالدون) ولم يقل تعالى (يخلدون) للمعنى الذي سبق، ومثله قول الله تعالى: {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧٠/١).

دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٢١٧]، والآيات في هذا كثيرة.

والمُلاحِظ للآيات التي وردت فيها هذه الصيغة يلحظ بأنها جاءت مرة بصيغة الفعل، وذلك في سورة الفرقان (يخلد)، في قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}[الفرقان]، مراعاة لخطاب من نزلت فيه الآية من جهة، فقد نزلت في قوم من المشركين أرادوا الدخول في الإسلام، ممن وقع منه في حال شركه هذه الذنوب، فخافوا أن لا ينفعهم الإسلام مع ما سلف منهم من ذنوب، فاستفتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية؛ ليعلمهم أنه قابل توبة من تاب منهم(١)، ثم مراعاة لصيغة مضاعفة العذاب قبلها، فقد جاءت بصيغة المضارع (يضاعف)، ثم مراعاة لفواصل الآيات، فاكتفي بدلالة المعنى عن الجمع بين دلالة المعنى وصيغة المبنى لما سبق.

- ومن أمثلتها كذلك، كلمة (الفاسقين) في قول الله تعالى من سورة البقرة: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)}، فقد ذكر الله تعالى فيها موقف المخاطبين بأمثال القرآن الكريم، بعد ما أنكر تعالى على من رد ضربه تعالى المثل بما قل، من بعوضة فما فوقها، وأنه لا غرابة في ذلك، ما دام أن الكل خلق الله تعالى، بل إن ضرب المثل أحيانًا بالحقير القليل يكون فيه من البراعة في الخطاب والبلاغة في بيان ضعف حال المضروب له المثل ما ليس في غيره، كضرب المثل لمن عبد غير الله وتعلق به رغبة ورهبة بحال بيت العنكبوت في الضعف والوهن، فذكر تعالى في آية البقرة – وهو وجه في الآية(٢) – بأن الأمثال المضروبة في القرآن تكون زيادة في هداية المهتدين وإيمانهم، فكلما جاء مثل من الله تعالى آمنوا به، وأمثال الله تعالى وقت تنزل القرآن المفرق متجددة النزول، فازدادوا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٠٣/١٩).

(٢) أي: أن قول الله تعالى في الآية: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهدِي بِهِ كَثِيرًا} خبر من الله تعالى، ليس من تمام كلام الكافرين. انظر: المحرر الوجيز (١١٢/١).

إيمانًا؛ ولذا ناسب استعمال صيغة الفعل المضارع (يهدي)، لأنها دالة على التجدد والحدوث، وهو المناسب لواقع الحال، ولم تستعمل صيغة الاسم (الهادي)؛ لأنها تدل على الدوام والاستمرار وهو لا يناسب حقيقة الحال، ومثله حال الكافرين، فكلما تجدد مثل من الله تعالى في كتابه، دفعوه وأنكروه وكفروا به، فكان زيادة في ضلالهم وكفرهم؛ ولذا جيء بصيغة المضارع (يضُلُّ)؛ لمناسبتها لواقع حالهم، ثم ختمت الآية بالسبب الذي من أجله كانت أمثال القرآن المضروبة فيه سببًا في زيادة ضلال الكافرين، وهو فسقهم، وخروجهم عن الإيمان وطاعة الرحمن؛ لأنهم ثابتون عليه، مستمرون فيه؛ ولذا جيء في وصفهم بصيغة اسم الفاعل (الفاسقين)، على أن جملة (وما يضل به إلا الفاسقين) في موضع الحال، أي: إنما ضلوا بذلك لأن حالهم الفسق[1]، دلالة على ثباتهم واستمرارهم عليه، فلم يظلمهم تعالى بذلك، بل هم من ظلم نفسه، كما قال تعالى في شأنهم في أول السورة: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[البقرة]؛ فإن الله تعالى لما رأى تمرسهم في الكفر وإمعانهم فيه ختم على قلوبهم وجعل على سمعهم وأبصارهم غشاوة؛ لأنه تعالى علم أنه لا خير فيهم، فكذلك هنا إنما ضلوا لكونهم ثابتون على الفسق، مستمرون فيه[2].

- ومن أمثلتها كذلك وصف الله تعالى للمتقين بجملة من الصفات المميزة لهم عن غيرهم، التي أوجبت لهم مقام التكريم، ومنزلة التفضيل، في قول الله تعالى من سورة آل عمران: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ}، فإن الله تعالى لمَّا ذكر ما تتعلق به النفوس من ملذات الدنيا، النساء والأولاد والأموال، ذكر أهل كرامته فيها، تنبيهًا على ما أشغلهم وأهمهم، وهم المتقون الذين تعلقت نفوسهم برضى ربهم، فبدأ تعالى بذكر أصل الأمر،

---

(١) انظر: إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين درويش (٦٩/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠٠/١).

وهو الإيمان، فجيء به في صيغة الفعل المضارع في (يَقُولُونَ) والماضي في (آمَنَّا)[1]؛ دلالة على تجدد ذلك منهم، وإحداثه مرة بعد مرة؛ لأنه أصل الأمر، ومتابعة تعاطي أسبابه، من الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، وإشارة إلى حرصهم عليه، رغبة ورهبة، في مقابل تعلق أهل الدنيا بما يتجدد لهم من ملذات الدنيا وحرصهم عليها، ولو جاء بصيغة الاسم (المؤمنين) لفات هذا المعنى.

ثم لما أراد الله تعالى وصفهم بما تميزوا به على غيرهم، وما تعودوه حتى أصبح سجية لهم، ذكره تعالى بصيغة الاسم (الصَّابِرِينَ) (الصَّادِقِينَ) (القَّانِتِينَ) (المُنْفِقِينَ) (المُسْتَغفِرِينَ)؛ دلالة على ثباتهم على هذه الخلال، واستمرارهم فيها، ومحافظتهم عليها، حتى أصبحت سجية لهم، وفصل بينها بالواو دلالة على كمالهم في كل منها، ولو جيء فيها بصيغة الفعل (يصبرون) (يصدقون) (يقنتون) (ينفقون) (يستغفرون)، لفات هذا المعنى؛ لأنه يدل على التجدد والحدوث مرة بعد مرة، وهو وإن كان كذلك في تعرضهم وتعاطيهم ما يستلزمه من أسباب، إلا أن استعمال الاسم أبلغ، لأنه يدل على المعنى المستفاد من الفعل، وزيادة أن هذه الخلال والصفات دائمًا على بالهم مستعدون لها، مستقرون عليها، ولو لم تعرض لهم أسبابها، ففيه زيادة في مدحهم[2].

- ومن أمثلتها ما سبق في قوله تعالى: {وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ}[الكهف:١٨][3]، وكذلك قول الله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ}[الأعراف:١٩٣]، وقوله سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}[البقرة:٨][4].

ثانيًا: مسميات وردت في سياق الخطاب بالفعل:

المسميات التي وردت في هذا السياق في القرآن كثيرة، ومن ذلك:

---

(١) انظر: إعراب القرآن الكريم، لأحمد عبيد الدعاس (١/١٢٧).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١٢/١٦).

(٣) انظر: ص ().

(٤) انظر: ص ().

- ما ذكر الله تعالى في صفات المتقين من أول سورة البقرة، قال تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، فقد ذكر الله تعالى صفاتهم بصيغة الفعل المضارع (يُؤْمِنُونَ) (يُقِيمُونَ) (يُنْفِقُونَ) (يُوقِنُونَ)؛ للدلالة على تجدد ذلك منهم، ووقوعه في وقت بعد وقت، وهو المناسب لواقع الحال منهم، مع دلالته على محافظتهم عليها، فهم يصدقون ويلتزمون بكل ما غاب عن حواسهم، سواء تعلق بالله تعالى، أو بما خلقه سبحانه مما سبق أو يأتي، مما يجدده الوحي عليهم من ذلك، أو يقفون هم عليه من طريقه فقط، ويحدثون فعل الصلاة مرة بعد مرة، فيجددون فعلها في كل يوم وليلة، وكذلك يفعلون فيما أوجب الله تعالى عليهم من النفقات الواجبة، والزكاة، والنفقات المستحبة كلما عرض لهم سببها، إيمانًا بالله تعالى[1]. ثم ختم الله سبحانه صفاتهم بإيقانهم بالآخرة مع أنه داخل في إيمانهم بالغيب تأكيدًا عليه، وتنبيهًا إلى أنه المحرك لهم على التزام صفات الإيمان ومقتضياته، في كل وقت مرة بعد مرة؛ ولذا جيء به في صيغة المضارع (يُوقِنُونَ)، فاشتملت الآية جميع الأوصاف المحمودة، والعبادات التي يعكف عليها المؤمنون: الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق، لتشتمل على كل ما اشتمله الإيمان، من الظاهر والباطن، وحق الله وحق عباده، والعبادات البدنية والمالية، واندرج فيها كل ما دونها، فمن اتصف بما ذكر التزم بما دونه، فجاء السياق في أبلغ صوره، وأتم صيغه وأكملها[2].
- ومن أمثلته كذلك ما ذكر الله تعالى في صفات الكافرين من سورة البقرة، قال تعالى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)}، فذكرها تعالى بصيغة الفعل المضارع (يَنْقُضُونَ) (يَقْطَعُونَ) (يُفْسِدُونَ)؛ للدلالة على تجدد ذلك منهم، وحدوثه مرة بعد مرة، وهو المطابق لواقع الحال منهم؛ فهم ينكثون ما عهده الله إليهم عن طريق أنبيائه ورسله من الأوامر والنواهي، بمخالفتها دائمًا، ويقطعون كل صلة بينهم وبين الله تعالى

---

(١) انظر: تفسير أبو المظفر السمعاني (١/٤٣).

(٢) انظر: إعراب القرآن وبيانه (١/٢٧).

برفض كل خير وتعاطي كل شر مما أمر الله تعالى به أن يوصل، ويجددون عمل ما فيه فساد الأرض بالذنوب والمعاصي[1]. ولم تأت هذه الصفات لهم بصيغة الاسم (الناقضين) (القاطعين) (المفسدين) مراعاة لقصد الدلالة على تجدد ذلك منهم، وإشارة إلى حرصهم على المحافظة عليه، وإحداثه مرة بعد مرة؛ ولذا لما ختمت الآية بالحكم عليهم، وبيان عاقبة حالهم جيء به في صيغة الاسم، في الجملة الإسمية (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)، فـ (الْخَاسِرُونَ) خبر (أولئك)، جاء في صيغة اسم الفاعل، إشارة لدوام خسرانهم، واستمرارهم عليه، ما داموا على سوء الصنيع الذي سبقت الإشارة إليه في أوصافهم، فاستعمال الاسم فيه أبلغ من استعمال صيغة الفعل (يخسرون)؛ لأنه يشير مع بيان عاقبتهم إلى استمرارهم وثباتهم على ما سبق من صفات أوجبت دوام الخسران لهم، والعياذ بالله[2].

- ومن أمثلته كذلك قول الله تعالى في سورة آل عمران: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}، فذكر الله تعالى في الآية شأن اليهود، وذكَّر المعاصرين لتنزل القرآن بسنة أسلافهم السابقين، في الكفر وقتل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقتل من يحثهم على العدل، ويأمرهم بالخير والمعروف، ويناهم عن الشر والمنكر، وبرغم أن من اشارة لهم الآيات قد سبق منهم ما ذكر، ومضوا في سالف العهد، إلا أن الآية جاءت بصيغة الفعل المضارع (يَكْفُرُونَ) (يَقْتُلُونَ)؛ للدلالة على أن هذه الصفات كانت فيمن سلف من آبائهم، إلا أن المخاطبين بالآيات في زمان تنزل القرآن وما بعده لازالت نفوسهم مستعدة لهذه الأفعال، قابلة لتكراره في كل عصر ومصر، وهم له مؤيدون، وكذلك حصل، فقد حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة[3]

وسمَّته اليهودية[4]، حتى إن موته صلى الله عليه وسلم كان من أثرها[1]، وهم كذلك في

---

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/٦٥).

(٢) انظر: إعراب القرآن وبيانه (١/٧٠).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/١٩٠).

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: الشاة التي سُمت للنبي صلى الله عليه وسلم، [بلا رقم]، من

دفع الحق، وتصفية أهل العدل والخير والصلاح؛ ولذا كان استعمال صيغة الفعل المضارع أبلغ من صيغة الاسم (الكافرين) (القاتلين)؛ لأنها تدل على التجدد والحدوث.
ثم لما ذكر الله تعالى حقيقة حالهم في خاتمة الأمر وعاقبته، ذكر إبطال ما أملوا من أعمال كانوا يرجون نفعها؛ لما تقدم من كفرهم وضلالهم[٢]، ثم نفى عنهم النصير في آجل الأمر وخاتمته، وذكره تعالى بصيغة الاسم (نَاصِرِينَ)؛ للدلالة على ثبات ذلك الأمر لهم، واستمراره فيهم، وشموله للمتقدم منهم والمتأخر، وهو ما سيحصل لهم في الآخرة، وهو أبلغ من صيغة الفعل (ينصرون)، الدالة على التجدد والحدوث، المخالف لواقع الحال[٣].

- ومن أمثلته كذلك قول الله تعالى في وصف القرآن من سورة النور: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٤٦]، فزكى الله تعالى كتابه الكريم باشتماله على العلامات الواضحات، والدلائل البينات، الكاشفة طريق الهداية من طريق الضلالة والغواية؛ ولذا سماه في مواطن من كتابه بالفرقان[٤]، ثم بين تعالى بأن كتابه وإن تميز بذلك[٥]، وكان قريب المنال للفهم من المكلفين إلا أنه يبقى اصطفاء الله تعالى لمن شاء من عباده للهداية؛ لأنها اصطفاء محض من الله تعالى، وجيء به في صيغة الفعل المضارع (يَهْدِي)؛ لمناسبته لواقع الحال، فهداية الله تعالى متجددة باصطفاء من شاء تعالى من المكلفين في كل جيل، وهي كذلك متجددة للمكلف في كل عمل؛ ولذا أمر المكلف أن يسألها الله تعالى في كل ركعة من صلاته بقوله في قراءة سورة الفاتحة: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[٦]، فجاءت صيغة المضارع أبلغ من صيغة الاسم

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، برقم: [٤٤٢٨]، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: إعراب القرآن الكريم، للدعاس (٢٨/١).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٠٨/٣).

(٤) قال تعالى: {وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ}[آل عمران]، وقال سبحانه: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}[الفرقان:١].

(٥) انظر: التحرير والتنوير (٢٦٧/١٨).

(الهادي)، مع أنها وقعت في الجملة خبرًا لمبتدأ[1]؛ مراعاة لواقع الحال وحقيقته، وتنبيهًا للمكلف أن يبقى قلبه متعلقًا بربه في منحها له، فيدمن على سؤالها من الله الهادي سبحانه، ولا يأمن من حرمانه منها، حين يتنكب رضى مانحها تعالى، فيبقى على حالة من الخوف والرجاء، تحفزه على حسن القصد والعمل.

- ومن أمثلتها ما سبق في قوله تعالى: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[فاطر:٣][2]، وقوله سبحانه: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[الشعراء][3].

ثالثًا: مسميات وردت في سياق الخطاب بالاسم تارة وفي سياق الخطاب بالفعل أخرى:

ورد في القرآن جملة من الأوصاف، ذكرت في مواطن بصيغة الاسم، وفي مواطن أخرى بصيغة الفعل، ولكل من الاستعمالين ما يناسبه، ومن ذلك على سبيل المثال:

(المؤمنون، المتقون، الصابرون، المهتدون) وغيرها من الأوصاف، وذلك لأن لها أصلاً في القلب فجاءت بخطاب الاسم إشارة إلى ذلك، ولها أيضاً تفاوت في قلوب المكلفين وأعمالهم، تزيد درجاتها بتجدد شعبها فجاءت بخطاب الفعل، إشارة إلى تجدد وحدوث تلك الزيادة في درجاتها نتيجة لزيادة الأفعال التي يحدثها المكلف من شعبها.

فمن أمثلتها بخطاب الاسم قوله تعالى: {لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}[النساء:١٦٢]، فجاءت الآية بصيغة الاسم (الْمُؤْمِنُونَ)، إشارة إلى ما معهم من الإيمان وقت التنزل، وإلى ثباتهم على الإيمان واستمرارهم فيه. ثم ثنى بصيغة الفعل المضارع (يُؤْمِنُونَ)، إشارة إلى ما يحصل للمكلف منهم من زيادة للإيمان وتجدد وحدوث كلما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم شيء من آيات الله تعالى اعتقادًا وقولًا وعملًا[4].

ومن أمثلته كذلك الآيات التي فيها نداء بوصف الإيمان، {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، وتضمنت أوامر الله تعالى ونواهيه، فجاءت بصيغة الفعل للدلالة على أن ما تضمنته الآية من شعب الإيمان، وأن التزام المكلف به يزيد إيمانه؛ لأن الفعل يدل على التجدد والحدوث؛ ولذا كان التزام مقتضى تلك

---

(١) انظر: إعراب القرآن الكريم، للدعاس (٢/٣٥٦).

(٢) انظر: ص ().

(٣) انظر: ص ().

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن (٤/٤٤).

الآيات من صفات أهل الإيمان. مثل قول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[البقرة:١٥٣]، وقوله سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة:١٨٣]، وقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ}[المنافقون]، وغيرها من الآيات كثير.

ومن أوضح أمثلته قول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الأنفال:٢]، فجاءت (الْمُؤْمِنُونَ) بصيغة الاسم؛ للدلالة على ما معهم من إيمان، وثباتهم فيه، واستمرارهم عليه، ثم ذكرت الآية تعاطيهم للأسباب التي تزيد من إيمانهم، وهي انتفاعهم بما يتلى عليهم من آيات الله تعالى، وجاءت (إِيمَانًا) بصيغة المصدر، دلالة على تجدد ذلك لهم كلما تجدد لهم سماع القرآن، وتأكيدًا لزيادة الإيمان به[1].

ومثله قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[الأعراف:١٥٦]، فجاءت (يُؤْمِنُونَ) بصيغة الفعل مراعاة لما يحصل لهم من زيادة في الإيمان بسبب إحداثهم شعبه[2].

والمُلاحظ لآيات القرآن، واستعمالات لفظ الإيمان فيه، والمقارنة بينها وبين لفظ الإسلام يتبين له بأن لفظ الإيمان كما ورد في مواطن بصيغة الاسم (المؤمنون)، وفي مواطن أخرى بصيغة الفعل (يؤمن، يؤمنون، آمِنُوا، آمَنُوا)، بكل تصاريفها، مضارع المفرد والجمع، والأمر، والماضي، في خطاب أهل الإيمان، لتفيد صيغة الفعل التجدد والحدوث، وصيغة الاسم الثبات والاستمرار، كما سبق، فكذلك لفظ الإسلام ورد في غالب مواطنه بصيغة الاسم (المسلمون، المسلمين)، وفي مواطن بصيغة الفعل (أَسْلَمَ، أَسْلِمْ، أَسْلِمُوا، أَأَسْلَمْتُمْ، يُسْلِمْ)، بكل تصاريفها، الماضي، ومفرد الأمر وجمعه، والمضارع، وكان غالب وروده بإفراد ذكره عن الإيمان، ومعلوم بأن لفظ (الإسلام) و (الإيمان) كلٌ منهما عند إفراد ذكره عن الآخر يشمل معنى الآخر، أما إذا اجتمعا فلكل منهما حقيقته، فحقيقة الإسلام تختلف عن حقيقة الإيمان عند الاجتماع؛ إذ إن الإسلام عند الاقتران يدل على الظاهر، ويشتمل على القدر الذي ليس دونه إلا الكفر والعياذ بالله، والإيمان يدل على الباطن، بتحقيق العبودية لله تعالى والانقياد له ظاهرًا وباطنًا، كما جاء التفريق بينهما في جملة من

---

(١) انظر: للاستزادة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (١١١).

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (١٠٦، ١٠٧، ١٠٨).

الآيات القرآنية، وذلك في نحو قول الله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ...}[الأحزاب:٣٥]، وقوله سبحانه: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[الذاريات]، وقوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[الحجرات:١٤][1].

فورود لفظ (الإسلام) بصيغة الاسم مفردة دالٌ على تفاوت أهله فيه، ليشمل من أسلم، ومن أمن، على تفاوت درجاتهم فيه، ويدل كذلك على الثبات والاستمرار عليه، وذلك في نحو ما يلي:

- قول الله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[الأنعام]، فأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يعلن خضوعه لله تعالى، وانقياده له، وعدم التفات وجهه أو تعلق قلبه بغيره تعالى، وختم صلى الله عليه وسلم الإعلان عن عقيدته بما يشمل ما سبق، وأنه أول من انقاد لربه بذلك من هذه الأمة، وجاء به في صيغة الاسم (الْمُسْلِمِينَ)؛ للدلالة على ثباته واستمراره عليه، ولم يذكره بصيغة الفعل (أول من أسلم) زيادة في الدلالة؛ إذ استعمال الاسم مع لفظ (أول) يدل على الأولية في ذلك، ويزيد عليه بالدلالة على استمراره فيه وثباته عليه، كما قال عليه الصلاة والسلام: (وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ)[2].
- ومن استعماله بصيغة الاسم للدلالة على الثبات والاستمرار كذلك قول الله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[يونس]، وقوله سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٨٩/٧)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (١١٥/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٨٣/١٢).

اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ}[الحج]، وقوله تعالى: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [النمل: ٩١]، وغير ذلك من آيات.

أما ورود لفظ (الإسلام) في صيغة الفعل بتصاريفها المختلفة فلم يرد إلا مفردًا عن لفظ (الإيمان)؛ ليشمل حقيقتي الإسلام والإيمان كما سبق؛ ولذا جاءت في كل الآيات في سياق الحديث عن تحقيق الإيمان، بخضوع الظاهر والباطن لله تعالى، كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة]، وكقوله جلَّ وعز: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[البقرة]، وقوله سبحانه: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا}[آل عمران:٢٠]، وقوله عز وجل: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}[النساء:١٢٥]، وقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ}[المائدة:٤٤]، وقوله سبحانه: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[الأنعام:١٤]، وقوله عز وجل: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}[الحج:٣٤]، وقوله تعالى: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}[لقمان:٢٢]، وقوله جلَّ وعز: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[غافر:٦٦].

وورود لفظ (الإسلام) بصيغة الفعل مقترنًا بـ (الإيمان) لم يرد إلا في قول الله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[الحجرات:١٤]؛ لأنه جاء في سياق خطاب من أسلم، ولم يكن معه إلا حقيقة الإسلام الظاهر، وهو الذي ليس دونه إلا الكفر والعياذ بالله، فهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم

يصلوا إليه بعد، لينتقلوا بتعاطي الطاعات والقربات الظاهرة والباطنة إلى مراتب الإيمان ودرجاته التي نفاها الله عنهم، وهو سياق لا يناسبه إلا صيغة الفعل الماضي[1].

ومثله أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب الأعراب الذين نفى عنهم تبارك وتعالى الإيمان، وأثبت لهم الإسلام، بقيلهم في المنِّ بما سبق من إسلامهم: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ}[الحجرات:١٧]، ثم لما ذكر تعالى منته عليهم بالهداية ذكرها بلفظ الإيمان، وبصيغة الاسم؛ مجاراة لهم على حسب قيلهم ودعواهم[2]، وليشمل كذلك تذكير المخاطبين من الأعراب وغيرهم من أهل الهداية؛ لأنهم جميعًا يشتركون في منة الهداية من الله تعالى، فناسب مجيئه بالاسم ليشمل الجميع {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

فالإيمان له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها، وإن غفل عنها، وله شعب يحدثها المكلف ويجددها، وكذلك التقوى والإسلام، والصبر والشكر، والهدى والضلال، والعمى والبصر، فكل هذه لها مسميات حقيقية تقوم بالقلب، وشعب وزيادة تتجدد، فجاءت بالاستعمالين، إلا أن لكل محل ما يليق به.

ومن أمثلة التقوى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ}[الحج:١]، فجاءت بصيغة الفعل (اتَّقُوا) للأمر بها والحض على تجديدها وإحداثها في كل قول وعمل.

وقال تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ}[آل عمران:١٣٨]، فجاءت بصيغة الاسم (لِلْمُتَّقِينَ) دلالة على حال المتقين في استمرارهم على التقوى وثباتهم عليها، وأن معهم منها وقت تنزل الخطاب ما برر وصفهم بذلك.

ومن أهم ما جاء بهذا اللون من سياقات القرآن الكريم ما تعلق منها بالحديث عن الله تعالى وصفاته العلية الزكية، حتى عدَّ قاعدة في باب الأسماء والصفات له تعالى، ويمكن أن تصاغ هذه القاعدة بالنحو التالي:

أن صفات الله تعالى ترد بسياق خطاب الاسم وصيغته، وترد بسياق خطاب الفعل وصيغته؛ للدلالة على ثبوت صفات الذات والفعل له تعالى:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٨٩/٧).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٧٠/٢٦).

دلت النصوص الشرعية على أن صفات الله تعالى منها صفات الذات، اللازمة له تعالى، التي لا تنفك عنه سبحانه؛ لأنها متعلقة بذاته، كالحياة والعلم والسمع والبصر والكلام، وغيرها من صفاته العلية.

ومنها صفات فعليه، تتعلق بمشيئته تعالى، يفعلها تعالى متى شاء، وهي وإن كانت فعليه بحسب آحادها وأفرادها، إلا أنها ذاتية من حيث قدرته تعالى عليها، فهو تعالى لم يكن عاجزًا عنها ثمَّ أصبح قادرًا عليها، كصفة الخلق والرزق والإحياء والإماتة والكلام، وغيرها من صفاته الزكية.

والمتأمل لآيات القرآن يلحظ بأنها عرضت هذه الصفات بخطاب الاسم تارة وبخطاب الفعل أخرى، فالاسم دال على ثبوت تلك الصفات لله تعالى واستمرارها له، والفعل على تجدد ما يتجدد له تعالى من تلك الصفات الفعلية، ومن ذلك على سبيل المثال:

- قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، حين بعثه الله تعالى إليه داعيًا له إلى عبادة الله تعالى وطاعته، وما أبداه موسى وهارون عليهما السلام من الخوف من فرعون وبطشه، فطمأنهما تعالى بقوله: {لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}[طه:٤٦]، فجاء الخطاب في صفتيه تعالى بصيغة الفعل وفي سياقه (أَسْمَعُ وَأَرَى) [(١)]، أي: أنتما في حياطتي وحفظي؛ لأني أسمع وأبصر ما يدور بينكم وبين فرعون، لا يغيب عني من ذلك شيء[(٢)].

فجاءت الصفتان بصيغة الفعل للدلالة على حصول تلك الصفة منه تعالى وقت لقاء موسى عليه السلام لفرعون، مع كون الصفتين من الصفات التي لا تنفك عن ذاته تعالى، فالله تعالى لا يغيب عن نظره شيء، ولا يفوت سمعه تعالى شيء، كما دلت على ذلك النصوص المستفيضة من القرآن والسنة، ومن ذلك على سبيل المثال، قول الله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[الإسراء:١]، وقوله سبحانه: {وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[غافر:٢٠]، وقوله عز وجل: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ

---

(١) انظر: إعراب القرآن، للدعاس (٢/٢٦٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥/٢٩٦).

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[الشورى:١١]، فجاء التعبير عنها في سياق الاسم وصيغته (السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)؛ للدلالة على ثبوتهما له تعالى، واستمرارهما، لأنهما من صفات ذاته العلية تبارك وتعالى.

- ومنه كذلك ما ذكر الله تعالى في صفة العلم له سبحانه، قال عز وجل: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ}[البقرة:١٨٧]، وقال تعالى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ}[البقرة:٢٣٥]، وقال سبحانه: {أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}[البقرة:٧٧]، وقوله جلَّ وعز: {ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[المائدة:٩٧]، فجاء التعبير في الآيتين الأوليين عن صفة العلم له تعالى بخطاب الفعل الماضي وصيغته (عَلِمَ)؛ للدلالة في الآية الأولى على أمر حصل، وهو ما وقع من بعض الصحابة الكرام رضي الله عنهم في أول فرض الصيام من مباشرة النساء بعد صلاة العشاء، وكان وقت نهي[(١)]. وفي الآية الثانية على ما وقع وسيقع، من ذكر بعض الرجال رغبة الزواج بالمرأة المعتدة في نفوسهم[(٢)].

وفي الآيتين الأخيرتين عبر عن صفة العلم له تعالى بخطاب الفعل المضارع وصيغته (يَعْلَمُ)؛ للدلالة على إحاطة علمه بكل شيء، فالتجدد والحدوث لا في ذات العلم له سبحانه، وإنما هو فيما تعلق به العلم؛ لأنه سبحانه قد علم أزلًا كل شيء قبل وقوعه، وهو من الصفات الذاتية التي لا تنفك عنه سبحانه؛ لذا تسمى بالعليم، كما ذكر تعالى ذلك في مواضع كثيرة من كتابه، قال تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[البقرة:٣٢]، وقال سبحانه: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة:١٢٧]، وقال عز وجل: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة:١٣٧]، فجيء به في صيغة الاسم

---

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/١٢٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/١٠٤).

وخطابه (العَلِيْم)؛ للدلالة على ثبوت العلم له تعالى ودوامه.

- ومنها كذلك صفة الخلق له تعالى، فقد جاء التعبير عنها في القرآن بكلا الصيغتين الاسمية والفعلية، ومن ذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}[البقرة:٢٩]، وقوله سبحانه: {وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ}[البقرة:٢٢٨]، فعبر عنها في الآيتين بصيغة الفعل الماضي وخطابه (خَلَقَ)؛ للدلالة على تجدد خلقه تعالى وحدوثه شيئًا بعد شيء، فما في الأرض مما خلقه الله تعالى لعباده، ويخلقه، هو منة منه تعالى عليهم؛ ليؤدوا حق العبادة لمنعمهم تعالى بذلك، كما أن ما يخلقه الله تعالى وينشئه للأنثى من الحمل لا يحل لها أن تكتمه عن أبيه، فتخفيه عنه، فعبر بصيغة الفعل في الصفة الفعلية لله تعالى.

وقال عز وجل: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}[آل عمران:٤٧]، وقال جل وعز: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}[المائدة:١٧]، فعبر عنها كذلك بصيغة الفعل المضارع وخطابه (يَخْلُقُ)؛ للدلالة على ثبوت صفة الخلق له تعالى، وتجددها المتعلق بمشيئة تعالى؛ ولذا أعقبت بإثبات مشيئته تعالى.

وصفة الخلق لله تعالى وإن كانت من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته تعالى إلا أنها جاءت في القرآن في خطاب الاسم وصيغته (خَالِقُ) (الخَالِقُ)، وذلك في قول الله تعالى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[الأنعام:١٠٢]، وقوله سبحانه: {قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[الرعد:١٦]، وقوله عز وجل: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ}[الحشر:٢٤]؛ للدلالة على ثبوتها له تعالى في كل حين، فهو سبحانه قادر عليها أزلًا وأبدًا.

- ومنها كذلك صفة الرزق لله تعالى، كما قال سبحانه: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[البقرة:٢١٢]، وقال عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[آل عمران:٣٧]، وقال تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[الشورى:١٩]، فجاء التعبير عنها بصيغة الفعل المضارع وخطابه (يَرْزُقُ)؛ للدلالة على التجدد والحدوث، وهو المناسب لحقيقة الحال وواقعه، ولكونها من الصفات الفعلية له تعالى، المتعلقة بمشيئته، فالله تعالى رازق عباده، ورزقه لهم متعلق

بمشيئته، فيجزل لمن شاء منهم، ويضيق على من يشاء، ويمنع من يشاء بحكمته؛ ولذا قيد ذلك بمشيئته تعالى، فقال: (مَنْ يَشَاءُ).

وجاءت كذلك صفة الرزق له تعالى في سياق الاسم وصيغته (الرَّزَّاقُ)، في قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[الذاريات:٥٨]؛ للدلالة على ثبوتها له تعالى، وهي وإن كانت من الصفات الفعلية له تعالى بحسب آحادها وأفرادها، إلا أنها ذاتية بحسب أصلها، وثبوتها لله تعالى أزلًا وأبدًا؛ لأنه قادر عليها في كل حين.

قال ابن أبي العز: (الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده)[(١)].

وقال ابن عثيمين: (كل ما أثبته الله تعالى لنفسه فهو صفات كمال، كما قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}[النحل:٦٠]، سواء كانت من الصفات الذاتية التي يتصف بها أزلاً وأبداً، أم من الصفات الفعلية التي يتصف بها حيث تقتضيها حكمته، وإن كان أصل هذه الصفات الفعلية ثابتاً له أزلاً وأبداً، فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال فعالاً لما يريد)[(٢)].

رابعًا: قواعد في الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل في القرآن:

ومن تأمل آيات القرآن، وسياقات الخطاب فيه، تبين له أن القرآن ربما اقتصر على أحد الاستعمالين لفائدة لا تحصل بالاستعمال الآخر؛ ولذا عدَّ كل منها قاعدة في بابه، ومن ذلك:

١- أن ما كان من المسميات من شأنه ألا يفعل إلا مجازاة، لا للاتصاف به، لم يأت إلا في سياق الخطاب بالفعل وتراكيبه:

نبه على هذه القاعدة الإمام الزركشي في برهانه[(٣)]، وحقيقتها: أن الوصف إذا كان مترتبًا على فعل من المكلف، أي: في مقام الجزاء، فإنه لا يأت إلا بصيغة الفعل بأنواعه وتصاريفه، ومن

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١٢٤).

(٢) تقريب التدمرية (٤٦).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٤/٤٥).

أمثلتها ما يلي:

- قول الله تعالى في شأن الكفار: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[البقرة]، وقوله سبحانه: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}[الجاثية:٢٣]، فأخبر الله تعالى عن طائفة من الكفار بأنه تعالى أغلق قلوبهم عن قبول الهدى، وأسماعهم عن الانتفاع بسماعه، وغطى عيونهم عن الانتفاع برؤيته، وجيء بها في صيغة الفعل الماضي (خَتَمَ) (وَجَعَلَ)، دلالة على تجدد ذلك وحدوثه لهم كلما عنت لهم أسبابه، وأشارت الآيات إلى السبب الذي من أجله عاقبهم الله تعالى بذلك، وهو تمرسهم في الكفر، وإمعانهم فيه، بعد بلوغ النذارة إليهم، كما في آية البقرة، وعلمهم بالحق وتمييزهم له، كما في آية الجاثية، وجيء في الحكم على عاقبة حالهم بصيغة الفعل كذلك في قوله: (لَا يُؤْمِنُونَ) (أَضَلَّهُ اللَّهُ)؛ لوقوع الجميع مجازاة لهذه الطائفة من الكفار على سوء صنيعهم، وانتكاس فطرهم، وعلم الله تعالى السابق أنه لا خير فيهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، ولذا وقع اختلاف السلف رحمهم الله تعالى في المراد بهم، فمن قائل بأن الآية في قوم مخصوصين ماتوا على الكفر، كأبي جهل وحيي بن أخطب وغيرهم، ومن قائل بأنها فيمن سبق في علم الله تعالى أنه يموت على الكفر، وجماع القولين، أنها في الكفار الذين يموتون عليه، والعياذ بالله[1].
- قول الله تعالى: {وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الحج:٥٤]، فأخبر الله تعالى عن أهل الاستجابة من عباده، وأنه سبحانه مجازيهم بجنس أعمالهم، فالله تعالى لمَّا علم من قلوبهم الاخبات له، ورأى من جوارحهم المبادرة إلى طاعاته ومراضيه، جازاهم بتجديد الهداية لهم؛ ولذا جيء في الخطاب بصيغة الفعل (لَهَادِ)؛ لتفيد التجدد والحدوث في مقام المجازاة، فهم بذلوا ما عليهم من إيمان، والله جازاهم على حسن صنيعهم بهدايته إياهم، وتجديد الهداية لهم؛ لأنه الكريم سبحانه، والجزاء من جنس العمل. وهذا هو الموافق لما صح عن الله تعالى في الحديث القدسي، حيث قال صلى الله عليه وسلم: "يقول اللَّه تعالى: أنا

(١) انظر: المحرر الوجيز (١/٨٧).

عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"[(١)].

- ومثله قول الله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}[إبراهيم:٢٧]، فأخبر الله تعالى عن جزائه لعباده المكلفين، الطائع منهم والعاصي، وأوضح بأن جزاء كل منهم مناسب لما بدر منه وقدمه؛ ولذا أخبر تعالى عن جزائه للمؤمن منهم، الذي أذعن لربه تعالى، وتقرب إليه بمحابه ومراضيه، أنه الهداية له والتثبيت، في كل مقام يحتاج فيه المؤمن لذلك، وجيء فيه بصيغة الفعل (يُثَبِّتُ) لتجدده وحدوثه، كلما احتاج المؤمن له، وجد معية الله تعالى تحوطه وترعاه. وعلى الضد من ذلك، فإن الكافر والعاصي يعامل بما يناسب حاله، فكما أنه لم يرفع رأسًا بأمر الله تعالى، وتنكب عن صراطه المستقيم، فإن الله تعالى يجازيه بجنس عمله، فيتركه في مهامه الضلال، ودروب العصيان، وجيء فيه بصيغة الفعل (يُضِلُّ) لتجدده وحدوثه له مرة بعد مرة، كما أخبر الله تعالى أنه يقال لهم يوم القيامة في النار: {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[السجدة:١٤]؛ لأن الجزاء من جنس العمل[(٢)].
- ومثله قوله سبحانه: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}[الرعد:٧][(٣)].

٢- أن ما كان صفة لازمة للمخلوق فإنه يجيء بصيغة الاسم، دلالة على ملازمة الصفة للموصوف:

نبه على هذه القاعدة الزركشي في برهانه[(٤)]، وحقيقتها: أن المخلوق إذا أريد وصفه بما هو لازم له

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: {ويحذركم الله نفسه}، برقم: [٧٤٠٥]. وصحيح مسلم، كتاب: الدعوات، باب: الحث على ذكر الله تعالى، برقم: [٢٦٧٥].

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥٨٩/١٦).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٤٥/٤).

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن (٤٥/٤).

من الصفات، أي لا تفارقه، فإنها تجيء بصيغة الاسم لا الفعل، ومن أمثلتها ما يلي:

- قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[البقرة:٦٧]، فأخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام حين أمر قومه بذبح البقرة، التي جعل الله تعالى فيها السبب لإحياء الميت الذي قتل فيهم، ولم يعلموا من قتله، بضربه بجزء منها، ليحيي بإذن الله تعالى فيخبرهم بقاتله. والله تعالى إنما أمرهم بذلك ليحصل لهم الابتلاء به، فيظهر به حقيقة إيمانهم، ومدى استجابتهم لأمر نبيهم من غير تردد ولا تعنت، ولو لم يعلموا حكمة الأمر ووجهه، وليعلمهم ضرورة الأخذ بالأسباب، وأنه تعالى ربط الأسباب بمسبباتها، فالمكلف مأمور بفعل السبب، وترتب وقوع المسبب بأمر الله تعالى وحده، وإلا فإن الله تعالى قادر على أن يحيي الميت من غير شيء.

ولمَّا كان اليهود أهل تعنت واستكبار، قابلوا أمر موسى عليه السلام لهم بنوع من الرد والاستهجان، فنسبوه إلى الاستهزاء والاستخفاف بهم، وهو فعل لا ينبغي أن يصدر من العاقل الحكيم في مقام الجد، فضلًا عن نبي كريم، مؤيد بالوحي، منزه عن ذلك في كل وقت؛ ولذا جاء رد موسى عليه السلام عليهم في أبلغ صورة وأتمها، فاستعمل نفي ما نسبوه إليه من الجهل عن نفسه بصيغة الاسم (الْجَاهِلِينَ)، لدلالته على نفي ذلك عنه بكل حال، وفي كل وقت، فنفي ذلك عنه صفة لازمة له، لا تنفك عنه، ولم يقل: (من الذين يجهلون) بصيغة الفعل، الدالة على التجدد والحدوث؛ لأن صيغة الاسم أبلغ، وهي المناسبة لحاله عليه السلام.

- قول الله تعالى في وصف أهل الإيمان حين يمسهم طائف الشيطان: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}[الأعراف:٢٠١]، فأخبر الله تعالى عن صفة من صفات المتقين، وهي أنهم مهما تفنن الشيطان في اعتراضهم في سيرهم إلى الله تعالى بفتن الشهوات والشبهات، إلا أن معهم من بصيرة العلم، ونور الإيمان والهداية، ما يحفظهم به الله تعالى من ذلك، ولأن البصر صفة لازمة للمتقي، لا تنفك عنه، جيء فيها بصيغة الاسم (مُبْصِرُونَ)، للدلالة على ثباتها ودوامها، وكونها أبلغ من صيغة الفعل؛ لأنها مع ما تدل عليه صيغة الفعل، تدل على ثبات تلك الصفة لهم واستمرارها فيهم في كل وقت وموقف، ولو جيء فيها بصيغة الفعل (يبصرون) لم تفد إلا معنى التجدد والحدوث، فصيغة الاسم أبلغ

واكد[1].

- وقوله سبحانه: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ}[القلم:١٩]، فأخبر الله تعالى عن أصحاب الجنة الذين امتن الله عليهم بفضله، وأعطاهم ما حرم منه غيرهم، فأساءوا القصد، وعزموا على حرمان الفقراء حقهم الذي كتبه الله لهم في ثمار جنتهم، فعاقبهم الله تعالى على سوء صنيعهم، بأن بعث على جنتهم ريحًا شديدة أفسدتها عليهم في ليلة واحدة، وكانوا نائمين، وجيء به في صيغة الاسم (نَائِمُونَ) للدلالة على تمكن النوم منهم، وغلبته عليهم، إذ استمروا فيه، وداموا علبه؛ ولذا لم يشعروا بما حصل تلك الليلة من ريح شديدة حتى رأوا جنتهم، وما حصل لها، فكانت مفاجأتهم بذلك أبلغ في تأديبهم، كما قال تعالى: {فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}، وهو أبلغ من استعمال صيغة الفعل (ينامون)؛ لأنها تدل على التجدد والحدوث، الذي قد يتخلله شيء من الاستيقاظ والشعور. فكما تواعدوا على التخفي عن الفقراء، والتبكير لجنتهم وجني ثمرها قبل وصول الفقراء إليهم ليحرموهم، أرسل الله تعالى الريح التي دمرتها في حال غفلتهم عنها بالنوم العميق، فحرموا خيرها، عقوبة لهم[2].

- ومن أمثلتها كذلك قول الله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٢٥]، وقوله سبحانه: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٣٩][3].

٣- أن النفي إذا دخل على الفعل المضارع أفاد الدوام والاستمرار:

نبه على هذه القاعدة أبو السعود في تفسيره[4]، وحقيقتها: أن الأصل في استعمال صيغة الفعل المضارع أن تدل على التجدد والحدوث كما سبق، إلا أنها قد تخرج عن هذا الأصل فتدل على ما

---

(١) انظر: تفسير أبو المظفر السمعاني (٢/٢٤٣).

(٢) انظر: تفسير الكشاف، للزمخشري (٤/٥٨٩).

(٣) انظر: ص ().

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/٩٣).

دلت عليه صيغة الاسم من الثبات والدوام والاستمرار؛ وذلك حين يُسبق الفعل المضارع بأدوات النفي، على حسب السياق الذي وردت فيه، ومن أمثلتها ما يلي:

- قول الله تعالى في خطابه للأبوين آدم وحواء عليهما السلام، وإبليس: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة:٣٨]، فأخبر الله تعالى عن إنزاله لهم إلى الأرض، التي قدر الله تعالى وقضى أن تكون دار ابتلائهم واختبارهم؛ إذ سلط عليهم تعالى وعلى ذريتهم عدوهم الأول إبليس وذريته، وحذرهم منه أشد التحذير، وأوضح لهم سبله وطرقه في إفسادهم، ليكونوا منه على بصيرة وبينة، فيحذروا وساوسه. ثم بين تعالى أن من اتبع هداه المرسل مع انبيائه عليهم السلام فهو في أمانين اثنين، الأول: نفي الخوف عنه، والثاني: نفي الحزن عنه، وجيء في الآية بما يدل على ثبات ذلك واستمراره لهم، فأما في نفي الخوف فبصيغة الاسم (خَوْفٌ)؛ الدالة بأصلها على ثباته واستمراره لهم، وأما نفي الحزن فبصيغة الفعل المضارع المسبوقة بالنفي (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، التي جاءت على خلاف الأصل في الدلالة على التجدد والحدوث، لتدل بذلك على ما دلت عليه صيغة الاسم من الدوام والثبات[1].
- وقوله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة:٦٢]، فأخبر الله تعالى عن طوائف الأمم، الذين آمنوا من هذه الأمة، واليهود، والنصارى، والصابئة، ثم بين تعالى أهل النجاة منهم، وهم من صدق في إيمانه بالله تعالى، وإنما جمع بين الإيمان بالله وباليوم الآخر هنا وفي كثير من آيات القرآن، مع أنه داخل في جملة الإيمان بالله تعالى، لأنه المصحح لسير المكلف إلى الله تعالى، الحامل له على الإيمان بالله تعالى وطاعته، خوفًا من عقاب الله تعالى فيه، ورجاء ثوابه تعالى فيه.

فأخبر تعالى أن من تحلى بذلك كان له الأمن والسرور، بنفي ضدهما عنه، وجيء في الآية بما يدل على ثبات ذلك واستمراره لهم، بصيغة الاسم (خَوْفٌ)؛ الدالة بأصلها على ثباته واستمراره لهم، وبصيغة الفعل المضارع المسبوقة بالنفي (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، الدالة على ما دلت

(١) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٩٣/١).

عليه صيغة الاسم من الدوام والثبات، كما سبق[1].

- وقوله جلَّ وعز: {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}[آل عمران:٩]، فأخبر الله تعالى عن دعاء الراسخين في العلم من عباده، الذين جمع الله تعالى لهم بين العلم والعمل، بسؤالهم الثبات على الهدى، والسداد في الأمر، بعد ما ذاقوا طعم الهداية؛ ليقينهم بأنه لا هادي إلا من هداه الله، ولن يثبت إلا من ثبته الله، وسؤالهم الرحمة من الله تعالى، والإعلان بإيمانهم باليوم الآخر، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجزي تعالى المهتدين بجنته، ودوام رضاه؛ ولذا قالوا: (لَا رَيْبَ فِيهِ)، إشارة منهم ليقينهم به، الذي يحملهم على الثبات على الحق والهدى، ثم ختموا دعاءهم بتعظيم الله تعالى، ووصفه تعالى بما يستحق في قولهم: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)، فيكون من تمام دعائهم، كما يدل عليه كلام الإمام الطبري في تفسيره، أو يكون اخبار من الله تعالى، كما صرح به أبو حيان في تفسيره، وعلى كلا الأمرين فقد ذُكر بصيغة الفعل المضارع المسبوق بحرف النفي (لَا يُخْلِفُ)، ليدل على استمرار ذلك وثباته منه تعالى وتقدس، حسب القاعدة في دلالة الفعل المضارع المسبوق بحرف النفي على الثبات والدوام والاستمرار[2].

٤- أن الخطاب بصيغة الفعل الماضي قد يفيد الحاصل المفروغ منه[3]:

وهو الأصل في دلالة الفعل الماضي[4]، أنه يدل على ما مضى وسبق، وأمثلته في القرآن كثيرة جدًا، ومنها:

- قول الله تعالى في سياق أمر عباده بعبادته، والتذكير بمننه المستوجبة لطاعته: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة]، فأمر الله تعالى بعبادته، ثم ذكر تعالى من افعاله ما يستوجب انابتهم إليه، وخضوع قلوبهم له وحده، وذكرها تعالى بصيغة الفعل الماضي (خَلَقَكُمْ) (جَعَلَ) (أَنْزَلَ) (أَخْرَجَ)؛ لأنها في خطاب من سبق ذلك لهم، وهي المناسبة لواقع الحال

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤٣/٢)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١٠٨/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢١/٦)، والبحر المحيط (٣٣/٣).

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٤٧١).

(٤) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢٤/١).

وحقيقته، فالله تعالى هو من خلقهم وأوجدهم، وهو سبحانه من سخر لهم الأرض فذللها لهم، وهو تعالى من أفاض عليهم ماء السماء وبركاتها، وهو جلَّ وعز من أخرج لهم من الأرض ما فيه بقاؤهم وحياتهم، أفيليق بالعاقل أن يتوجه لغيره الله، ممن لم يفعل ذلك كله ولا بعضه، فيعبده من دون الله[1].

فلما كان الحديث عمَّا سبق وحصل جيء به في صيغة الفعل الماضي، ولما كان السياق في النهي عن الشرك، الذي أمروا بالبعد عنه في كل حين، وقت سماع الخطاب القرآني وبعده، جيء به في صيغة الفعل المضارع وخطابه (تَجْعَلُوا)، دلالة على تجدد نهيه تعالى عنه في كل وقت وحين.

- قول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[الشعراء]، فلما أراد عليه السلام التعبير عن الخلق الحاصل المفروغ منه عبر عنه بخطاب الماضي وبصيغته (خَلَقَنِي)، ولو جاء فيه بخطاب الفعل المضارع (يخلقني)؛ لأفاد التجدد والحدوث، وهو مخالف لحقيقة الحال وواقعه. ثم لما ذكر ما يتجدد له عبر عنه بصيغة الفعل المضارع (يَهْدِينِ) (يُطْعِمُنِي) (يَسْقِينِ) (يَشْفِينِ)؛ للدلالة على التجدد والحدوث، وهو المناسب لواقع الحال وحقيقته، فهو تعالى منعم عليه بذلك قبل قوله وبعده، ولو استعمل فيه الفعل الماضي لخالف واقع الحال، ولأفاد ما مضى دون ما يحصل في المستقبل، فالله تعالى الهادي له في كل حين وفعل، وهو الذي يطعمه ويرزقه في كل وقت، وهو الذي يسقيه كذلك، ويشفيه كلما مرض[2].
- ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[آل عمران:١٢٣]، وقوله سبحانه: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ}[التوبة:٢٥]، فذكر الله تعالى منته على نبيه والمؤمنين، بنصره لهم في مواطن الجهاد، بدر وأحد والأحزاب وحنين وما بينها، فعبر عنه بالفعل الماضي (نَصَرَكُمُ)، للدلالة على أمر حصل وفُرغ منه، وهو نصر الله لهم في بدر وما بعدها، فهو الموافق لحقيقة الحال وواقعه، ولم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٩٤).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٩/١٤٢).

يعبر عنه بالفعل المضارع (ينصركم)؛ لأن الحديث في سياق أمر حصل وفرغ منه[1].

- **وقد يفيد الحاصل والمتجدد معاً:**

قد يستعمل الخطاب بالفعل الماضي وصيغته في القرآن، فيفيد حينئذ الحاصل المفروغ منه، والمتجدد الذي لم يحصل بعد، ومن أمثلة ذلك الآيات القرآنية التي ذكرت بعض صفات الله تعالى، ومنها:

- قول الله تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}[آل عمران:١٨١]، وقوله سبحانه: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[المجادلة:١]، فقد ذكر الله تعالى صفة السمع له تعالى، فجيء بها في خطاب الفعل الماضي وصيغته (سَمِعَ)، وهي دالة على صفة السمع المتعلقة به تعالى، والتي وقعت في حينها، حين قال اليهود مقالتهم المشينة في حق الله تعالى، وحين سمع الله تعالى محاورة المجادلة لرسوله صلى الله عليه وسلم وشكواها له تعالى، فدلت على الصفة الذاتية له سبحانه، أي اللازمة التي لا تنفك عنه، وهي قدرته تعالى على الفعل، فهو سبحانه لم يزل سميعًا في كل وقت، وهي بدلالتها على ما حصل وقت تكلم اليهود، ومجادلة المرأة إلا أنها كذلك تدل على تجدد ذلك في كل مسموع لله تعالى بعد هذا الخطاب؛ ولذا ختمت آية المجادلة بما يدل على ثبوت هذه الصفة لله تعالى في قوله: (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ).
- ومن أمثلتها كذلك، ما ذكر الله تعالى في صفة الكلام له سبحانه في قوله: {مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}[البقرة:٢٥٣]، وقوله جلَّ وعز: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}[النساء:١٦٤]، وقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}[الأعراف:١٤٣]، فذكر الله تعالى صفة الكلام له، فذكرها بخطاب الفعل الماضي وصيغته (كَلَّمَ) (كَلَّمَهُ)؛ للدلالة على الصفة الفعلية، الواقعة في حين التكلم بمشيئته تعالى؛ إذ كلم نبيه موسى عليه السلام في ذلك الحين، وهي دالة أيضًا على تجدد ذلك له تعالى كلما أراد ذلك سبحانه، فصفة الكلام من الصفات الذاتية، الثابتة له سبحانه في كل حين ووقت، فهو سبحانه قادر على الفعل في كل حين، لم يزل متكلمًا متى شاء.

---

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥٠٢/١) (٧٦/٣).

فهذه بعض صفات الله تعالى: (السمع، الكلام)، جاء التعبير عنها بخطاب الفعل الماضي وصيغته، فهي دالة على حصول هذه الصفات منه تعالى وقت تعلق الخطاب، وتدل كذلك على ما يتجدد من تلك الصفة في كل حين؛ لأن صفات الله تعالى منها صفات الذات، التي لا تنفك عنه تعالى؛ لأنه سبحانه متصف بها في كل وقت وحين، لم يكن تعالى خليًا من هذه الصفات، وغيرها مما ثبتت به النصوص الشرعية، ثم أصبح قادرًا عليها، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ومنها صفات فعلية متعلقة بمشيئة تعالى، كصفة الكلام، المتعلقة بمشيئته تعالى واختياره، فهو يتكلم متى شاء، كما دل على ذلك النصوص المستفيضة من القرآن والسنة.

وهذا هو مذهب أهل السنة في إثبات الأسماء والصفات، المنقول عن سلف الأمة من الصحابة الكرام، وتابعيهم بإحسان إلى يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رده على الطوائف المخالفة في صفة كلام الله تعالى: (وأما "السلف وأئمة السنة" وكثير من أهل الكلام كالهشامية، والكرامية، وأصحاب أبي معاذ التومني، وزهير اليامي، وطوائف غير هؤلاء، يقولون: إنه "صفة ذات وفعل" وهو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته، وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم، فكل من وصف بالكلام –كالملائكة والبشر والجن وغيرهم – فكلامهم لابد أن يقوم بأنفسهم، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم)[1].

ومثله في التعبير بخطاب الفعل مع إفادة الحاصل والمتجدد معاً قوله تعالى في نداء الذين آمنوا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ}[النساء:١٣٦]، فالمخاطبون من عباد الله المخلصين بهذه الآية معهم إيمان حاصل؛ ولذا نودوا به في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، فجاء التعبير عنه بخطاب الماضي وصيغته (آمَنُوا)، فدل على ما عندهم من ذلك، وهم مأمورون كذلك بالمحافظة عليه والحرص عليه في مستقبل أمرهم، كما يدل عليه استعمال الفعل، من التجدد والحدوث، مع التأكيد عليه في الآية بفعل الأمر (آمِنُوا)، المتضمن للأمر بالحرص على الترقي في درجاته، وإحداث شعبه وتجديد أعماله، من صلاة وصيام وذكر وصدقة وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وغير ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/٢١٩).

٥- أن الفعل المضمر المقدر كالمظهر في الدلالة على التجدد والحدوث:

نبه على هذه القاعدة الزركشي في البرهان[١]، وحقيقتها: أن صيغة الفعل وخطابه تدل على التجدد والحدوث، حتى وإن كان مضمرًا مقدرًا لا مظهرًا مذكورًا، ومن أمثلتها:

- قول الله تعالى عن سلام الملائكة على إبراهيم عليه السلام: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}[هود:٦٩]، فجاء تسليم الملائكة على إبراهيم عليه السلام بصيغة الفعل الماضي المقدر وخطابه بقولهم (سلمنا سلامًا)، واكتفي بإظهار المصدر (سَلَامًا)؛ للدلالة على تجدد سلامهم وحدوثه، بخلاف رد إبراهيم عليه السلام عليهم فإنه جاء بصيغة الاسم وخطابه (قَالَ سَلَامٌ)؛ لأنه دال على ثبوت التسليم عليهم واستمراره، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، اقتداء بقوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا}[النساء:٨٦][٢].

الخاتمة

بعد التطواف في رحاب البحث حول موضوع: (أحوال السياق القرآني في استعمال قاعدة: خطاب الاسم وخطاب الفعل)، أحمد الله تعالى آخرًا كما حمدته أولًا، على ما منَّ به وتفضل

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٤/٤٧).

(٢) انظر: المصدر السابق، وإعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين الدرويش (٤/٣٩٧).

وحده، ثم أشير إلى جملة من أهم نتائج البحث في النقاط التالية:

-لما كانت أمة العرب التي بعث فيها محمد صلى الله عليه وسلم قد بلغت الذروة في فصاحة اللسان كانت أكبر معجزاته صلى الله عليه وسلم من جنس ما برعوا فيه، فأنزل الله تعالى القرآن الكريم بلغتهم؛ فاجتمع لهذه اللغة تفردها بميزات لم تكن لغيرها، ونزول أفضل الكتب الإلهية، وأفضل الرسالات السماوية، وأفضل الرسل البشرية بها، فهي أفضل اللغات وأوسعها وأميزها، ومما جاء به القرآن على طريقتهم، وفاق بلاغتهم: تنوع سياقاته القرآنية؛ لتوافق اختلاف أحوال المخاطبين، واختلاف مضمون الخطاب، بسياقات الالتفات المختلفة، والمدح والذم، والتحضيض والتنفير، والوعد والوعيد، وخطاب الاسم وخطاب الفعل، وغيرها كثير.

-أن قاعدة(الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل)من القواعد القرآنية، التي تكشف أوجهًا كثيرة من بلاغة القرآن وفصاحته؛ ولذا لا يحسن استعمال أحدهما موطن الآخر،وإلا اختل المراد من الآية.

- أن من مسميات القرآن ما ورد في سياق الخطاب بالاسم وصيغته؛ مراعاة لمقاصد بليغة عظيمة، وكذلك منها ما ورد في سياق الخطاب بالفعل وصيغته، ومنها ما ورد في سياق خطاب الاسم وصيغته في مواطن، وخطاب الفعل وصيغته في مواطن أخرى، مراعاة لمقصد في كل موطن لا يتحقق بالاستعمال الآخر.

-بتأمل استعمال القرآن لقاعدة (الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل) يمكن الوقوف على جملة من القواعد في هذا الباب، أهمها ما يتعلق بصفات الله تعالى.

أما التوصيات، فأهمها:

-ضرورة العناية بدراسة القواعد اللغوية في القرآن، لا للوقوف على الشواهد النحوية فقط، أو ترجيح بعض الآراء النحوية من خلاله، وإنما لاستعمال كل ذلك في تثوير بلاغة القرآن، واستخراج دره وفرائده، وتأكيد هدايته وعظمته، التي يعجز عنها مقدور البشر.

وختاماً أسأل الله الحليم العليم أن يمن علينا برحمته، وأن يرزقنا حبه وحب نبيه، وأن يجعل ما منَّ به تعالى وتفضل ذخراً لنا يوم نلقاه، وأن يغفر لنا ما فيه من خطأ وتقصير، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس المصادر والمراجع

- **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر.**

البناء: أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين. المحقق: أنس مهرة. الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان. الطبعة: الثالثة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

- **الإتقان في علوم القرآن.**

السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م.

- **إعراب القرآن الكريم.**

الدعاس: أحمد عبيد- أحمد محمد حميدان - إسماعيل محمود القاسم. الناشر: دار المنير ودار الفارابي – دمشق. الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ.

- **إعراب القرآن وبيانه.**

الدرويش: محيي الدين بن أحمد مصطفى. الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت). الطبعة : الرابعة، ١٤١٥ هـ.

- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل.**

البيضاوي: أبو سعيد، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، ناصر الدين. المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ.

- **البحر المحيط في التفسير.**

أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، أثير الدين الأندلسي. المحقق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر – بيروت. الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

- **البرهان في علوم القرآن.**

الزركشي: أبو عبدالله، محمد بن بهادر بن عبد الله. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٩١هـ.

- **التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد).**

الطاهر بن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي. الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس. سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

- **تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم).**

أبو السعود: محمد بن محمد بن مصطفى، العمادي. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- **تفسير القرآن.**

السمعاني: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزى التميمي الحنفي ثم الشافعي. المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم. الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

- **تفسير القرآن العظيم.**

ابن كثير: أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. المحقق: سامي بن محمد سلامة. الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

- **تقريب التدمرية.**

العثيمين: محمد بن صالح بن محمد. الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الدمام. الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

- **جامع البيان في تأويل القرآن.**

الطبري: أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الآملي. المحقق: أحمد محمد شاكر. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

- **السيرة النبوية.**

ابن هشام: أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، جمال الدين. تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي. الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م.

- **شرح ألفية ابن مالك.**

ابن عقيل: عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري. المحقق : محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر: دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه. الطبعة : العشرون ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

- **شرح العقيدة الطحاوية.**

ابن أبي العز: محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي، صدر الدين. تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني. الناشر: دار السلام للطباعة

والنشر التوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي). الطبعة: الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

- **شعب الإيمان.**

البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين. تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها.**

ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين. الناشر: محمد علي بيضون. الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

- **صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه).**

البخاري: أبو عبدالله، محمد بن إسماعيل الجعفي. المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر. الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي). الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

- **فتح الباري شرح صحيح البخاري.**

ابن حجر: أبو الفضل، أحمد بن علي العسقلاني الشافعي. رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. وعليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز. الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

- **كتاب العين.**

الفراهيدي: أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد بن عمرو البصري. المحقق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي. الناشر: دار ومكتبة الهلال.

- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل.**

الزمخشري: أبو القاسم، محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله. الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

- **لسان العرب.**

ابن منظور: أبو الفضل، محمد بن مكرم بن على، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى. الناشر: دار صادر – بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤١٤ هـ.

- **مجموع الفتاوى.**

ابن تيمية: أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم الحراني، تقي الدين. المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. عام النشر: ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.**

ابن عطية: أبو محمد، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن الأندلسي المحاربي. المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

- **المستدرك على الصحيحين.**

الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

- **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

النيسابوري: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. المحقق: مجموعة من المحققين. الناشر: دار الجيل – بيروت. الطبعة: مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة ١٣٣٤ هـ.

- **المصنف في الأحاديث والآثار.**

ابن أبي شيبة: أبو بكر، عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي. المحقق: كمال يوسف الحوت. الناشر: مكتبة الرشد – الرياض. الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.**

عبدالباقي: محمد فؤاد. الناشر: دار الحديث – القاهرة. الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

- **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير).**

الفخر الرازي: أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠ هـ.

فهرس الموضوعات

- **المقدمة: وفيها:**

أولًا:
التمهيد.....(١)
ثانيًا: أهمية
الموضوع.....(٢)
ثالثًا: منهج البحث وخطته.....(٢)
● **المبحث الأول: ويشتمل على ما يلي:**
أولًا: تنوع السياقات القرآنية.....(٤)
ثانيًا: قاعدة الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل.....(١٣)
● **المبحث الثاني: أحوال الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل في القرآن الكريم، وفيه:**
أولًا: مسميات وردت في سياق الخطاب بالاسم.....(١٧)
ثانيًا: مسميات وردت في سياق الخطاب بالفعل.....(٢١)
ثالثًا: مسميات وردت بخطاب الاسم تارة، وبخطاب الفعل أخرى.....(٢٤)
رابعًا: قواعد في الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل في القرآن:
١- ما كان من المسميات من شأنه ألا يفعل إلا مجازاة، لا للاتصاف به، لم يأت إلا في سياق الخطاب بالفعل وتراكيبه.....(٣٣)
٢- ما كان صفة لازمة للمخلوق فإنه يجيء بصيغة الاسم، دلالة على ملازمة الصفة للموصوف(٣٥)
٣- النفي إذا دخل على الفعل المضارع أفاد الدوام والاستمرار.....(٣٧)
٤- الخطاب بصيغة الفعل الماضي قد يفيد الحاصل المفروغ منه، وقد يفيد الحاصل والمتجدد معًا.(٣٨)
٥- أن الفعل المضمر المقدر كالمظهر في الدلالة على التجدد والحدوث.....(٤٢)
● **الخاتمة**.....(٤٣)
● **المصادر والمراجع**. .....(٤٤)